

الوضع السياسى العام فى البحر الأبيض

أثناء سيادة المسلمين عليه

٤

بقى أن نناقش نقطة هامة تتعلق بهذا الموضوع كله ، هى نقطة الوضع السياسى العام فى البحر الأبيض فيما بين منتصف القرن الثامن إلى منتصف الحادى عشر الميلاديين .

وأما فى هذه الناحية رأى يتناقله المحدثون من مؤرخى الإسلام كأنه حقيقة مقررة لا شك فى صحتها تاريخياً : هى أنه قامت على شواطئ هذا البحر خلال هذه الفترة أربع دول كبرى ، اثنتان إسلاميتان : هما العباسية فى المغرب والأموية فى الأندلس ، واثنتان نصرانيتان : هما البيزنطية فى الشرق والفرنجية فى الغرب ، وأن الدولتين الإسلاميتين كانتا على عداء فيما بينهما ، وكذلك الدولتين النصرانيتين . ولهذا اجتهدت الدولة العباسية فى مخالفة الدولة الكارولنجية للاستعانة بها على الدولة الأموية الأندلسية ، وفى نفس الوقت اجتهدت الدولتان البيزنطية والأموية فى التحالف معاً للقضاء على خصميهما .

ويذهب أولئك المؤرخون إلى أن الرشيد وشارلمان تبادلوا السفارات والمخالفات ، وكذلك فعل أمراء بيزنطة وخلفاء الدولة الأموية والأندلسية . ولكننا عندما نغضى فى دراسة العلاقات بين هذه الدول الأربع ، نتبين أن الأمر مجرد وهم تاريخى تناقله الناس واحداً عن واحد دون تحقيق أو تفكير سليم .

أ — العباسيون والكارولنجيون :

وقد ناقش الناحية الأولى علاقة الدولة العباسية بالدولة الكارولنجية مؤرخون كثيرون فيما بين مؤيد ومعارض ، من أمثال بكلر وجورانسن ورنسيما وف. ف. شमित وغيرهم ، وقد ناقش هذه الآراء كلها الدكتور عبدالعزيز الدورى مناقشة طيبة فى كتابه «العصر العباسى الأول» ، وانتهى إلى نتائج يمكننا الأخذ بها ، وسنعرض هنا مناقشته فى إيجاز :

قال : «تخلو المصادر الشرقية — إسلامية ومسيحية — من الإشارة إلى أى صلة بين الرشيد وشارلمان ، وتفرد المصادر اللاتينية بذلك ، ولكنها مضطربة وغامضة ، فلا غرابة أن وجدنا تبلبل الكتاب الغربيين ولجوءهم إلى الخيال لتفسير تلك الصلات . ولكنهم جميعاً — عدا بارتولد — يقررون صحتها ثم يختلفون فى تفسير نتائجها» .

وهذه المصادر اللاتينية التى يشير إليها الدكتور الدورى هى :

Eginhard: Vita Caroli.

St. Call: Gesta Caroli Magni.

Gests Regum Francorum.⁽¹⁾

وهذه المصادر تؤكد أن هارون الرشيد وشارلمان تبادلوا السفارات والهدايا فيما بين سنتى ٧٩٧ و ٨٠١ ، و«بينما كانت السفارة التى أرسلها شارلمان شلى الرشيد فى الشرق ، حصل تبادل هدايا وصلات ودية بين

(١) هذه هى الإشارات الكاملة إلى المراجع التى يشير إليها المؤلف :

Eginhard: Vie de Charlemagne, publ. avec trad. française par L. Halphen, 2e. éd. Paris, 1938.
Moine de Saint-Gall: Gesta Caroli Magni, pub. dans les Mon. Germ. Série des Scriptorum Tome II, Hanovre, 1829.

Gesta Regum Francorum, publ. par B.Krusch sous le titre: Liber Historiae Francorum dans les Mon. Germ. Série des Scriptorum rerum Merovingicarum. Tome II, Hanovre, 1888.

بطريق القدس وشارلمان ، وكان البادىء بها البطريق ، إذ أرسل إلى شارلمان راهباً يحمل هدايا رمزية . ولما رجع ذلك الراهب أرسل شارلمان معه القسيس زكريا يحمل هبات إلى الأرض المقدسة . وفي كانون الأول سنة ٨٠٠ رجع زكريا إلى الغرب يصحبه راهبان من قبل بطريق القدس يحملان إلى شارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح كنيسة القدس وراية . ثم يقول :

أما العوامل التى دعت إلى إنشاء العلاقات (كما يراها الغربيون) فهى متعددة ، منها رغبة شارلمان فى فتح الأندلس وحاجته إلى تأييد الخليفة المعنوى لئلا يقف عرب الأندلس فى وجهه كعدو للإسلام كما فعلوا سنة ٧٧٨ حين هاجم شمال الأندلس وفشل . ثم الخلاف بين شارلمان والبيزنطيين حول وراثة تاج الدولة الرومانية ، ويزيد الأمر تعقيداً العداء بين البابا وبين بطريق القسطنطينية على السيادة الروحية للعالم المسيحى . ورغبة البابا (حليف شارلمان) فى تقوية صلاته مع بطارقة الإسكندرية وأنطاكية والقدس ليقفوا بجانبه . ثم رغبة شارلمان فى تسهيل الحج إلى الأراضى المقدسة وفى تكوين نفوذ معنوى له فى تلك البقاع .

أما مصالح الرشيد فهى ناتجة فى زعمهم عن خصومته مع البيزنطيين ورغبته فى القضاء على نفوذهم المعنوى بين مسيحيى الشام والجزيرة بتقوية صلاتهم بالغرب ، ثم عدائه لأموى الأندلس ورغبته فى بسط سيادته عليهم ^(١) .

(١) انظر : Buckler. Harun al-Rashid and Gharles the Creat (Massachusetts, 1931), p. 170 off

Joranson: The Alleged Frankish Protectorate in Palestine A.H.R. 1927, pp. 241-6.

S. Runciman: Charlemagne and Palestine E.H.R. Op. cit. 1935, pp. 606 off.

F.F. Schmidt: Karl der Grosse und Harun al-Rashid.

Der Islam, vol. III, 1912, pp. 409-11.

وقبل أن نذكر تأويلات الغربيين لنتائج هذه الوفود — وهى تأويلات بنوها على التخمين غالباً — نذكر بعض الشكوك التى تساورنا فى التفاصيل المذكورة والتى تجعلنا نميل لنفى وجود صلات سياسية .

«قبل كل شئ يكتنف المصادر اللاتينية الأولية غموض واضطراب ، فالمصدر الأول المعاصر — وهو الأخبار — الملكية» Annales Regni Francorum مقتضب لا يساعد على تعيين الصلات ، بينما قصد اينهارد فى كتابه «سيرة شارلمان» تفخيم سيده ورفع اسمه ، وفى الكتاب أخطاء كثيرة ولا يعتمد عليه . أما الراهب سنت كول St. Gall فهو من كتاب الأساطير^(١) . وقد اعتبر الأستاذ بارتولد هذه النقطة مع سكوت المصادر العربية حجة كافية لنفى وجود الصلات^(٢) .

ثم يظهر لى أن الباحثين ظروف شارلمان ولم يفهموا وضع الرشيد وهل كان يستوجب فتح صلات من هذا القبيل . فقد كان الرشيد هو المنتصر على البيزنطيين قبيل فتح العلاقات حتى اضطروهم إلى دفع الجزية سنة ٧٩٨ ، كما أنه لا دليل على أن مسيحي الشام كانوا خطراً يذكر على سلامة الدولة فى عهده . ثم هل كان الرشيد يعرف قوة شارلمان مع بعد المسافة واختلاف الدين ؟ وهل يمكن أن يضع الخليفة ثقته فى ذلك الغريب لاسترجاع الأندلس ؟ وهل يجوز لخليفة المسلمين أن يتفق مع مسيحي لضرب مسلمى الأندلس ؟ وهل من المعقول أن يفكر الرشيد فى استرجاع الأندلس فى وقت اضطرب فيه إلى أن يتخلى عن سلطته الحقيقية فى إفريقيا (تونس) والمغرب ؟ كل هذه نقاط تنفى بصورة قوية وجود ما يدفع الرشيد لفتح صلات سياسية مع شارلمان . ومن الجهة الأخرى كانت علاقة شارلمان

(١) انظر : Joranson op. cit. p. 251, Runciman, op. cit. p. 619.

(٢) انظر : Buckler, op. cit. p. 34-7.

مع البيزنطيين حسنة في هذا الدور . ففي سنة ٧٩٨ أرسلت إيريني وفداً إلى شارلمان للمفاوضة في عقد حلف^(١) واقترحت عليه الزواج ، ولعلها سلمت بإعطائه لقب إمبراطور^(٢) . ثم هل كان عرب الأندلس يدينون بالطاعة للخليفة العباسي وهم لم يبايعوه وقد حاربوا جده المنصور من قبل وهزموا جيشه ؟ لا أرى ذلك .

وأخيراً يرى بارتولد أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحاق ، بينما أرسل سفراءه مقدماً (بأياد فارغة) ... ويرى أن إسحاق كان من التجار اليهود المتاجرين بين الشرق والغرب لا سفيراً^(٣) . ويقوى رأيه هذا أن مصدرين لاتينيين يذكران أن غاية الوفد الأول كانت الحصول على فيل^(٤) .

«أما فيما يخص نتائج الصلات ، فيرى فاسيليف Vasiliev أنه بينما حافظ الرشيد على سيادته على فلسطين ، «صار لشارلمان بإذن الخليفة حق حماية المسيحيين والحجاج (في الأراضي المقدسة) وحق إنشاء كنائس وخانات في فلسطين»^(٥) .

أما برييه Brehier فيستنتج من قول اينهارد إن الرشيد أجاب رغبات شارلمان (حسب طلب الوفد الأول) وأعطاه حق حماية الأراضي المقدسة كما أن إرسال البطريق لمفاتيح كنيسة القيامة كان معناه تقديم الطاعة للحامي الجديد .

Ibid. p. 18. (١)

Ibid. p. 20-21. (٢)

Ibid. p. 45. (٣)

Joranson, op. cit. p. 243. (٤)

Ibid. p. 241. (٥)

وقد بين الأستاذ جورانسن أن آراء برييه مبنية على التخمين لا على تدقيق علمي ، وأنه لا توجد معلومات شافية عن غرض الوفد الأول ، وأن مصدرين لاتينيين يبينان أن غرضه الحصول على فيل ، فحصل عليه . وليس هناك ما يدل على أنه حصلت بينهم وبين الخليفة مفاوضة سياسية أو أنه كان بينهم وبين شارلمان اتصال بعد سفرهم ، كما أننا لا ندرى ما إذا كانت قد حصلت مفاوضة بين وفد هارون وبين شارلمان حتى إنه لا يوجد سجل بتاريخ رجوعه^(١) . أما تقديم المفاتيح والراية من قِبَل البطريق فلا يمكن أن يعطى معنى سياسياً ؛ لأن الرواة لا يعلقون عليه أهمية سياسية ، بل يتفقون على أنه كان من باب الدعاء والتبريك *benedictionis causa* ، وإذن «فإعطاؤه معنى سياسياً هو تحميل المصادر ما ليس فيها» . ولا دليل على وجود علاقة بين صلات الخليفة وصلات البطريق بشارلمان . ثم يستطرد جورانسن ويقول : إن «الأخبار الملكية» لا تذكر مهمة الوفد الإفرنجي الثاني ، وإن اينهارد يضيف من عنده أن رسل شارلمان كانوا يحملون هبات لكنيسة القيامة وأنهم قدموا مطالب فقبلها الرشيد ثم تكرم بمنح شارلمان حق الحماية على الأراضي المقدسة . ولكن اينهارد (في رأى جورانسن) لا يمكن الوثوق به ، كما أنه يخلط بين هذه السفارة وبين إرسال زكريا بالهبات لكنيسة القيامة (سنة ٧٩٩) ، ثم إنه لا يعرف طلبات الوفد ، بينما كان أمر الحماية تخميناً من عنده ولا قيمة له^(٢) .

تبقى نقطة أخيرة وهي أن شارلمان أرسل صدقات وهبات إلى فلسطين فاستعملت في تعمير بعض الكنائس ، وأنشأ منزلاً للحجاج باسمه كما أنشأ مكتبة . ولكن ذلك لا يكفي ، كما يرى جورانسن ، للبرهنة على وجود حماية ، خاصة وأن اينهارد يذكر أن شارلمان «خطب ود الملوك وراء البحار

(١) Joranson, p. 242-5.

(٢) Joranson, op. cit. pp. 248-52.

لأنه أراد بالدرجة الأولى تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون في ممالكهم» وهذا لا يقتصر على الرشيد^(١). وهكذا يدحض جورانسن أسطورة حماية شارلمان على الأراضي المقدسة .

أما بكلر ، فيعتقد أن الوفد الأول هو المهم ، ومع أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غير معلومة ، فإنه يرى أن نجاح الرسالة يوحى بأنها كانت لغاية أو أكثر من ثلاث : (١) تحديد وضع شارلمان حامياً للمصالح العباسية في الأندلس وفي غربى البحر المتوسط ، (٢) عقد حلف مع الرشيد يرمى إلى التعاون المتبادل ، فيقف شارلمان ضد الأندلس ، ويقف الرشيد ضد البيزنطيين ، أو السماح لإيرينى بأن تعقد الصلح مع العباسيين (لعله نسى أن الصلح عقد سنة ٧٩٨) ، (٣) فتح الطريق للحجاج اللاتين لزيادة الأراضي المقدسة وحمايتهم من ظلم الأرثوذكس^(٢). وهكذا يبنى بكلر نظريته على الحدس ، وهو يعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة ، ولكنه يقول : إن سوء العلاقة بين الرشيد وبين نقفور استوجب وضع تقييدات على المسيحيين ؛ ولذلك توسط شارلمان في الموضوع^(٣). ويرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسى مستدلاً على ذلك بإرسال بطريق القدس مفاتيح المدينة والراية^(٤). وهذا المنصب لا يتطلب (في زعمه) حضور شارلمان إلى القدس بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له^(٥). وكذلك عين شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس^(٦).

(١) Ibid. p. 255.

(٢) Buckler, p. 22.

(٣) Ibid. pp. 26-9.

(٤) Ibid. p. 30.

(٥) Ibid. p. 29 No. 1.

(٦) Ibid. p. 35.

ويقول بكرر : إن هذه المفاوضات يجب أن تنظر بمنظار الدبلوماسية الإسلامية ، وهو بذلك يجعل شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي ، ومن جهة أخرى يجعل الخليفة وكيله في تنفيذ مهامه ! ثم هو يجعل شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس مستنداً بذلك إلى تفسير الماوردي لإمارة الاستيلاء . ولكن الماوردي يبين أن إمارة الاستيلاء «تعقد عن اضطراب ، فهي أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تديرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة بإذنه متقلداً لأحكام الدين»^(١) . فكيف يرضى الخليفة أن يكون لشارلمان حكم الأندلس ثم يستأذن منه أن يطبق أحكام الدين ؟ وهل كان الأمويون كفاراً ليرضى الرشيد بهذا الترتيب المزرى ؟ ثم كيف يطمح الرشيد باسترجاع الأندلس ، ويعترف مقدماً بأن الحكم فيها سيكون لغيره ؟ وأخيراً نقول : إن التضييق على المسيحيين كان بعد المفاوضات المزعومة لا قبلها ، وذلك لضرورات عسكرية . وهكذا نرى بكرر يتخبط في موضوع لا يفهم كنهه ، ويفرض فروضاً لا أساس لها في الفقه أو التاريخ الإسلامي .

أما «رنسيمان» فيرى في نظرية حماية شارلمان على فلسطين أسطورة ، اخترعها المؤرخ الأسطوري الراهب سنت كول الذي كتب حوالى خمسين سنة بعد وفاة شارلمان ، إذ جمع المعلومات عن الهدايا التي أرسلها الخليفة بالطريق مع معلومات اينهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل إليه وارداتها^(٢) .

وهكذا يظهر وهنُ نظرية الحماية وأساسها الأسطوري . والذي أراه من هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر في المصادر اللاتينية الثلاثة بالنص) احتمال

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ص ٢٧ .

(٢) Runciman, op. cit. p. 629.

وجود نوع من الصلات ، ولكنها صلات تجارية لا سياسية . وأن المسئول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق ، ولعلمهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الإسلامية والصين كما بين بن خرداذبة^(١) ، خاصة وأن من أساليب التجار آنئذ أن يدعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم .

وهذه المناقشة السليمة تجلو هذه الناحية جلاء تاماً ، وتظهر بوضوح أنها من ابتكار مؤرخي شارلمان ليزيدوا من فضله وجاهه ، وأن الذين أيدها من المؤرخين الأوروبيين المحدثين إنما فعلوا ذلك بدوافع بعضها ديني كالرغبة في إثبات أن المسلمين في أيام عزهم سمحوا للنصارى بحماية الأراضي المقدسة ، بل تركوا مفاتيح كنيسة القيامة في يد شارلمان ، وبعضها سياسي يرمى إلى القول بأن للغرب على الأراضي المقدسة حقوقاً اعترفت بها الدولة الإسلامية في أوجها .

ب — الأمويون الأندلسيون والبيزنطيون :

أما الجانب الثاني من هذا الموضوع ، جانب علاقات الدولتين البيزنطية والأموية الأندلسية ، فهو أوضح بعض الشيء ، ولدينا عنه معلومات يمكن الوثوق فيها ، بل لدينا نصوص مكاتبات احتفظت بها المراجع ، ونحن لهذا نستطيع تكوين صورة واضحة عنه وقد تناوله بالبحث علماء من طراز راينهارد دوزى وجورج مارسيه وليفى بروفنسال وفازيلييف .

والمعلومات التي بين أيدينا عن هذه العلاقات متفرقة في كثير من مراجع التاريخ الأندلسي ، مثل مقتبس بن حيان والبيان المغرب لابن عذارى ونفح الطيب للمقرئ وتاريخ بن خلدون . والمعلومات التي يقدمها لنا ابن حيان

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك (باعثاء دى خويه ، ليدن) ، ص ١٥٤ .

في المقتبس ترجع بدورها إلى اثنين من أوثق وأقدم مؤرخي الأندلس عاشا في القرن العاشر الميلادي هما الحسن بن محمد بن مفرج وعيسى بن أحمد الرازي .

وتتلخص هذه المعلومات في أن إمبراطور بيزنطة تيوفيل الرابع أرسل في سنة ٢٢٥ — ٨٣٩/٨٤٠ إلى عبدالرحمن الأوسط «ترجماناً» رومياً (أى سفيراً) يسمى كرتيوس Kratiyus ، حاملاً هدايا ورسالة يخاطب فيها وده ويسأله أن يعقد معه معاهدة صداقة ، ويخرضه على استرجاع ملك أجداده في الشام الذي غصبه العباسيون ، ويطلب استخلاص إقريطش ممن استولى عليها من الأندلسيين وردها إلى دولة الروم .

والغالب أن دافع الإمبراطور البيزنطي إلى هذا المسعى كان خوفه من نوايا المعتصم الخليفة العباسي ، وكان المعتصم قد غضب من عدوان الروم على زبطرة سنة ٨٣٧ ، فقام في صيف العام التالي بغزوة كبيرة على أرض الروم استولى فيها على عمورية مهد البيت البيزنطي الحاكم . وقد اكتفى المعتصم بذلك ولم يواصل نشاطه ، ولكن يبدو أن تيوفيل ظل متخوفاً منه ، فكان هذا — على الأغلب — ما دفعه إلى مكاتبة عبدالرحمن الأوسط ، لعله يثير على العباسيين مشكلة تصرفهم عنه . ومما يؤيد ذلك أن تيودفيل أرسل في نفس الوقت سفارتين إحداهما إلى لويس التقى والأخرى إلى البندقية ، يستصرخهما لِعونه على العباسيين الذين كانوا يهددون دولته في الشرق ، وعلى أهل إفريقية وصقلية الذين استولوا على جزء كبير من أملاك الدولة في الغرب . وقد رد عبدالرحمن على ذلك بسفارة إلى الإمبراطور البيزنطي تتكون من اثنين من المنجمين والشاعر المعروف يحيى بن حكم الغزال ، ومعهم رسالة احتفظ لنا ابن حيان بنصها . وقارىء هذه الرسالة يتبين بوضوح أن عبدالرحمن كان شديد الحذر في كتابه إلى الإمبراطور البيزنطي ؛ نعم إننا نجد في هذا الرد دلائل على كراهيته للعباسيين وألمه لقضائهم على البيت المرواني وقتلهم جده مروان بن محمد ، ولكنه لم يرتبط من ناحيته

بشيء ، حتى عن الأندلسيين الذين كانوا قد استولوا على صقلية يقرر عبدالرحمن أنهم منذ طُردوا من الأندلس لم يعودوا رعاياه . ولا يشير الكتاب إلى ما ذكره الإمبراطور البيزنطي من أعمال الأغلبة في صقلية وجنوى إيطاليا .

وقد تجددت المحاولة في عهد عبدالرحمن الناصر ، وكان البادىء بها هذه المرة هو الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بورفиро جنيت Porphyrogenete (لابس الأرجوان) ، فقد أرسل في سنة ٣٣٦ و ٤٤٧ — ٨ سفارة إلى الناصر . ولم تحتفظ لنا المراجع بنص رسالته إلى كبير خلفاء الإسلام في عصره ، ولكن الغالب أن الذى دفع الإمبراطور البيزنطي إلى مكاتبة الناصر كان شعوره بما كان بين الأمويين والفاطميين من عدااء وتخوفه من نوايا أولئك الأخيرين نحوه بعد انتقاهم إلى مصر . وقد تلقى الناصر السفارة البيزنطية لقاء حسناً حرص فيه على أن يظهر دولته بمظهر القوة والجاه ، وقد وصف لنا المقرئ مشهد استقبال سفراء الروم وصفاً بديعاً ، وأورد نص الخطبة التى ألقاها منذر بن سعيد البلوطي كبير علماء الأندلس في عصره في هذه المناسبة ، وهى قطعة من البلاغة الجوفاء لا تغنى بشيء في هذا المقام . وقد رد الناصر على سفارة الإمبراطور البيزنطي بكتاب سلمه إلى رسله مع طائفة من الهدايا والألطف ، وبعث معهم رجلاً من عنده هو هشام بن هذيل — أو كليب — كان من قسوس مستعربى الأندلس ، ولهذا تسميه المراجع العربية بالجالثيق Catholicus ، وقد عاد هشام إلى الأندلس بعد سنتين .

ويحدثنا المقرئ في نفح الطيب أن عبدالرحمن الناصر عندما شرع في بناء مدينة الزهراء بعث إلى القسطنطينية في طلب الفسيفساء والمرمر ، وقد قام بالسفارة هذه المرة كبير مستعربى الأندلس الأسقف ربيع بن زيد ، فأدى الرسالة وعاد بالتحف المطلوبة . ويفهم من رواية المقرئ أنه مربيت المقدس واستصحب في عودته نفراً من صناع الفسيفساء ليعلّموا أهل الأندلس

صنعها وتركيبها . ويقول المقرئ في كلامه عن الزهراء : «وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه إليها أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء (بيت المقدس) ، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتمثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام — وقيل من القسطنطينية — مع ربيع الأسقف» . ويبدو أن هذه لم تكن المرة الوحيدة التى أرسلت بيزنطة فيها إلى الأندلس طُرف الفن ومهرة الصناع ، فقد ورد عليها أيام الحكم المستنصر نفر آخر منهم ، ومن هؤلاء الصناع البيزنطيين تعلم أهل الأندلس هذه الفنون الجميلة ، وكان لهذا أبعد الأثر فى تطور الفن الأندلسى ، وقد علق مؤرخو الفن الإسلامى — مثل هنرى تيراس — أهمية كبرى على ذلك .

ويحدثنا بن أبى أصيبعة فى «طبقات الأطباء» : « أن الناصر كاتب أرمانوس الملك ، ملك قسطنطينية Romanus Lécapenus — أحسب سنة سبع وثلاثين وثلثمائة — وهاداه بهدايا لها قدر عظيم ، فكان فى جملة هديته كتاب ديسقوريدس Dioscorides مصور الحشائش بالتصوير الرومى العجيب ، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقى الذى هو اليونانى ، وبعض معه كتاب هروسيوس Paulus Orosius صاحب القصص وهو تاريخ للروح عجيب ... » .

وقد وصلت هذه الهدية الجليلة مع سفارة استقبلها الناصر ورجال دولته استقبالا حافلا . ويذهب ليفى بروفنسال إلى أن هذه السفارة قد تكون هى نفسها التى وقعت سنة ٣٣٨ — ٩٤٩ ، ويعجب من أن وصف احتفال الناصر بها كما أورده بن حيان ينطبق تمام الانطباق على ما أورده قسطنطين السابع لابس الأرجوان عنها فى كتاب «الاحتفالات» .

ونخرج من هذا الكلام بأنه كانت بين الدولتين البيزنطية والأموية الأندلسية مراسلات وسفارات ، وأن أباطرة البيزنطيين حسبوا أول الأمر

أنهم يستطيعون الإفادة من العداء الطبيعي بين الأمويين الأندلسيين والعباسيين في كسب الأولين إلى جانبهم والاستعانة بهم على العباسيين . وقد رأينا أن الدافع الأول للبيزنطيين على مكاتبة الأمويين أن الذين انتزعوا منهم إقريطش كانوا أندلسيين ، فحسب البيزنطيون أن أمير قرطبة يستطيع رد أذى الأندلسيين عن شواطئ الروم ، وتوسلوا إلى ذلك بتذكير الأمويين بمساءات العباسيين إليهم ولوحوا لهم بإمكان فتحهم للشام . ولكن أمراء الأندلس كانوا أعقل من أن يجروا وراء هذه الأوهام وأكيس من أن يجأروا إلى الإمبراطور البيزنطي فيما جمع به خياله إليه ، وتمكنوا — بما عهد فيهم من كياسة — من توجيه العلاقات بينهم وبين بيزنطة وجهة سلمية علمية أفاد الأندلس منها فائدة جلية .

لم يكن هناك إذن اتفاق بين البيزنطيين والأمويين على عداء العباسيين ، ولا تفاهم بين العباسيين مع الفرنجة على الإضرار بالأندلس ، والموضوع كله وهم تاريخي أشبه بالأسطورة أخذت هيئة الحقيقة التاريخية لكثرة تكرارها وإلحاح المؤرخين على ذكرها .

وجدير بالذكر في هذا المقام أن نشير إلى نتائج قيام الدولة الفاطمية في إفريقية على سيطرة المسلمين على هذا البحر . فقد وقع النفور الشديد من أول الأمر بين الفاطميين والأندلسيين ، وأخذ كل منهما حذره من الآخر ، وكما كانت الدولتان على عداء في البر كانتا في البحر أيضاً كذلك ، فأخذت سفن كل منهما تتعقب سفن الأخرى وتؤذيها ، فكانت النتيجة أن ضعفت الجبهة البحرية الإسلامية في غرب البحر الأبيض ، وبدلاً من أن توجه أساطيل المسلمين قوتها نحو الجبهة النصرانية المعادية ، اجتهد كل منهما في محاربة الآخر وتعقب سفنه ، واحتازت كل من الدولتين الأموية الأندلسية والفاطمية على سواحلها من عدوتها . وكان ذلك في نفس الوقت الذي كانت البابوية تجتهد فيه في توحيد قوى الدول النصرانية وتوجيهها لحرب

المسلمين . وإلى هذا الجهد البابوى يرجع الفضل فى توجيه ييزا وجنوا قواتهما وجهة دينية وتوحيدهما لحرب المسلمين ، وكانت هذه كلها طلائع ضعف الجبهة البحرية الإسلامية وتراجعها وخروج البحر الأبيض الغربى من سلطان المسلمين ، وذلك كله يكون — فى اعتبارنا — طرفاً من المقدمات البعيدة للصليبيات .

★★★★★

خاتمة :

هذه هي قصة دخول المسلمين البحر الأبيض وسيطرتهم عليه ، وتحويلهم إياه إلى بحيرة إسلامية طوال ثلاثة قرون ، وما ترتب على ذلك من نتائج في العالمين الشرق والغرب .

وقد رأينا أن المسلمين سيطروا بالفعل على أمواه ذلك البحر ، وسادته أساطيلهم الرسمية وغير الرسمية ، وملكوا عنانه وحالوا بين غيرهم وبين تسيير السفن فيه ، ولكن ذلك كله لم يَعدْ أن يكون سيطرة حربية كان ينبغي أن يفيد منها المسلمون . نعم إن السفن والمتاجر كانت دائمة السير بين ثغور المسلمين في الشرق والغرب ، وإن الحركة كانت عظيمة بين موانئ الشام ومصر والمغرب والأندلس ، ولكن هذا النشاط البحري لم يكن بالقدر الذي كان يمكن الوصول إليه . وإنه لمن الغريب حقاً أن نجد ثغوراً مثل عكا ويافا وصور وصيدا وعسقلان وتنيس ودمياط والإسكندرية تهبط عما كانت عليه أيام الرومان والبيزنطيين بدلا من أن تعظم وتنشط ، حتى دور الصناعة وفن بناء السفن نجدهما في تقهقر مستمر . وربما كان هذا أضعف جانب في البناء العام للدول الإسلامية ؛ لأن هذا الضعف البحري هو الذي حال بين المسلمين وبين القضاء على بيزنطة منذ زمن مبكر ، فبقيت عقبة كئوداً في سبيل التوسع الإسلامي سياسياً ودينياً . ومن ناحية أخرى نجد أن العالم الإسلامي الغربي إنما أتى من جانب البحر قبل أن يؤتى من جانب البر ، وكان ضعف البحريات الإسلامية المنظمة من آكد الأسباب في ضياع الأندلس وجزائر البحر ثم في انهيار دول المغرب بعد ذلك . وهذه كلها ملاحظات نبديها سراعا ؛ إذ لا يتسع المجال لبحثها في هذا المقام بحثاً مطولاً . وبحسبنا أن نضعها تحت أنظار الباحثين للتأمل والدراسة .

سيطر المسلمون على البحر الأبيض ولكنهم لم ينتفعوا به الانتفاع الواجب ، ظل في نظرهم دائماً أو ساحة قتال دون أن يستطيعوا تحويله إلى طريق سلام وانتقال وتبادل تجارى وغير تجارى . ملكوا عنان البحر ولكنهم لم يستعملوه استعماله الصحيح ، فضاعت عليهم الفوائد التي كان يمكن أن تعود عليهم لو أنهم حولوا هذا البحر إلى أداة اتصال وتقارب كما كان على عهود الرومان وكما سيصبح في العصور الحديثة . والبحر الأبيض ليس مجرد مساحة مائية ، وإنما هو همزة وصل بين ثلاث قارات ، وأداة طيبة جداً للسلطان والجاه والغنى ، ومهد لحضارات إنسانية كبرى ؛ والاتصال به والانتفاع منه بركة كبرى على من يستطيع ذلك ، ولكنه نقمة على من لا يستطيع . ولم يدرك المسلمون هذه الحقائق الهامة إلا بعد فوات الأوان ، وانتقال البحر الأبيض إلى أيد غير أيديهم .

حسين مؤنس

مراجع البحث

(أ) أصول :

- ابن الأثير : الكامل ، ط تورنبرج ١٨٦٧—١٨٧٦ ، والقاهرة ١٣٤٨ .
- أمارى ، ميكيلى : المكتبة الصقلية ، ١٨٥٤ ، ٣ مجلدات
- البلاذرى : فتوح البلدان ، ط القاهرة ١٩٣٢ .
- ابن حوقل : صورة الأرض ، ط كرامرز ، ليدت ١٩٣٨ .
- ابن حيان : المقتبس ، ط ملشور أنطونيا ، باريس ١٩٣٧ .
- ابن خردادبة : المسالك والممالك ، ط لايسيك ١٨٦٩ .
- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخير ، القاهرة ١٩٣٦ .
- ابن خلدون : المقدمة ، ط بيروت ١٨٨٦ .
- الطبرى : تاريخ ، ط دى خويه ، وطبعة القاهرة ١٩٣٩ .
- ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة تورى ، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٠ .
- ابن عبدربه : العقد الفريد ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٠—١٩٥٢ ، ٢ .
- ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خير الأقطار ، ط ليفى بروفنسال ، القاهرة — لايدن ١٩٣٨ .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، ط دوزى ، لايدن ، ١ و ٢ ، وطبعة ليفى بروفنسال وكولان ، لايدن ، ج ١ .

- الكندى : القضاة والولاة ، ط روفن جست ١٩١٠ .
- المسعودى : التنبيه والإشراف ، لايدن ١٨٩٤ .
- المقرئ : نفح الطيب ، ط لايدن ١٨٥٥—١٨٦١ ، والقاهرة ١٩٤٧ .
- المقرئى : الخطط ، القاهرة ١٣٢٤ .
- المقرئى : النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، القاهرة ١٩٣٧ .
- النويرى : نهاية الأرب : ط جسابار ريمىرو ، مدريد ١٩١٩ ، ج ١ و ٢ .
- ابن هشام : سيرة الرسول ، ط محبى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٦ ، ٤ أجزاء .
- الواقدى : مغازى ، ط فون كريم ، كلكتا .
- أبو يوسف : كتاب الخراج ، ط المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٠٢ .

(ب) أبحاث :

- إبراهيم العلوى : المسلمون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٢ .
- حسن حسنى عبدالوهاب : قصة جزيرة قوصرة العربية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، ج ٢ عدد ٢ — ١٩٤٩ .
- سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٩ .
- شارل ديل : البندقية ، ترجمة عزت عبدالكريم وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٧ .
- شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا .

- عبدالرحمن زكى : السلام فى الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢ .
- عبدالمنعم ماجد : نظم الفاطميين ، القاهرة ١٩٥٣ .
- فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ح ١ ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥١ .

(ج) مراجع غير عربية :

- AMARI, MICHELE. Storia dei Musulmani di Sicilia (2'. éd de Nallino, Cattane 1933).
- CAETANI, L. Annali dell Islam (Milan 1905-1910) vols 1-3.
- CANARD, M. Expéditions des Arabes contre les Byzantins. Journal Asiatique, Mars 1926.
- CHALENDON. Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, Paris 1907.
- CHEIRA, M.A. La Lutte entre les Byzantins et les Arabes, Alexandrie, 1942.
- DE GOEJE. Memoire sur la conquête de la Syrie (dans ses Memoires d'histoire et de géographie orientale) 2 vols. Leyde 1886.
- DOZY. Musulmans d'Espagne, éd. Lévi Provençal, Leiden, 1932, 3 vols.
- GASPAR RIMERO, MARIANO. Cordobeses.
- GAUTIER. Le Passé de l'Afrique du Nord, 2'. éd. 1937.
- GAY. L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin depuis l'avènement de Basile 1er. jusqu'à la prise de Bari par les Normands. Paris, 1907.
- GROHMANN, A. From the World of Arabic Papyri, Cairo, 1951.
- HEYD, W. Histoire du commerce du levant au Moyen-Age, trad. fr. 2'. éd. Leipzig 1923.
- HITTI. Origins of the Islamic State, New-York 1916.
- MOSS, H. ST. L.B. The Birth of the Middle Ages. London 1946.
- PIRENNE, HENRI. La civilisation occidentale au Moyen-Age (Paris 1933) Hist. Générale de Glotz, vol. VIII.
- PIRENNE, HENRI. Mahomet et Charlemagne. Paris, Bruxelles 1937.

PROVENÇAL, LEVI. Histoire de l'Espagne Musulmane, 1er. éd.
Le Caire, 1944.

PROVENÇAL, LEVI. La Peninsule Iberique au Moyen-Age.
Leiden 1938.

RUNCIMAN. Byzantine Civilisation. Oxford 1935.

SCHAUBE, ADOLF. Handelsgeschichte der romanischen Volker
des Mittelmurs gebietes bis zum Ende der Kreuzzuge.
Munchen-Berlin 1906.

VASILIEV. Histoire de l'Empire Byzantin, 2 vols (Paris 1932).

WUSTENFELD. Die Kampfe der Araber mit den Romern
(Nachrichten d. K. Ges. Gottingen) 1901.